الفصـــل الثالث

ذيول الحروب الصليبية فى ساحل شرق أفريقية
(الغـــزو البرتغـــالى)

- وصول فاسكودى جاما الى ساحل شرق افريقية ٠
- الحملات البرتغالية الى الساحل فى بداية القرن السادس عشر ٠

رأينا ماكان من قيام عدد من المدن الاسلامية على طول الساحل الشرقى لأفريقية ، غلب عليها الطابع العربى ، وكان لها الفضل فى ازدهار أحوال السكان وارتفاع مستواهم الثقافى والخلقى • فكانت كلوة تسيطر على موانى الجنوب وتجارته بعد أن أبعدت مقديشيو عن سيطرتها على سفالة حيث كان يصدر الذهب ، وشاركت ممبسة ومالندى وغيرها من المدن الكبيرة فى تلك التجارة ، وفى الشمال أصبحت بات تحت حكم أسرة نبهان قوة كبرى • أما الجزر الكبيرة زنجبار وبمبا ومجموعة جزر مافيا ، فقد ارتبط نشاطها بالزراعة لخصوبة أراضيها ، فعلى سبيل المثال كان الأرز وأشجار جوز الهند من المحاصيل الهامة فى بمبا • وبين المدن الكبيرة امتد عدد كبير من القرى الساحلية الصالحة لصيد الأسماك والزراعة • وعلى أية حال ، عاشت المدن الساحلية فى العصور الوسطى تزاول نشاطها التجارى ، وتساهم فى نشر الاسلام والثقافة العربية ، الى أن دهمها الغزو البرتغالى فى أواخر العصور الوسطى ، فغير معالم تاريخها تماما • وهنا نلاحظ أن تلك المدن تباينت علاقاتها بين التحالف والعداء ، اذ أخذ كل حاكم يدافع عن استقلال مدينته السياسى والاقتصادى ، مما حال دون قيام دوله موحدة قوية أو وحدة سياسية تامة فى المنطقة ، واقتصر الأمر على التوسع الذى كانت تفرضه أحيانا بعض المدن القوية على جيرانها ، ولهذا عندما أتى البرتغاليون من جنوب الساحل قبل أن يشرف القرن الخامس عشر الميلادى على نهايته ، استغلوا الخلافات القائمة بين هذه المدن بعضها والبعض الآخر لصالحهم • (١)

والواقع أننا لانعرف المدى الذى وصلت اليه معلومات البرتغال عن شرق أفريقية والمحيط الهندى فى القرن الخامس عشر ، فيما عدا خريطة فراماورو كامولديس Fra Mauro Camoldese التى وضعها للأمير هنرى الملاح فى البندقية فى عام ١٤٦٠ م ، اذ كانت أول خريطة حقيقية ظهرت

Oliver & Mathew (Edit.), History of East Africa, Vol. I, Chapter V, The Coast of 1498 — 1840 by Freeman — Grenville, pp. 132 — 133;

جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى أفريقية ، ترجمة الدسوقى حسنين المراكبى ، ص ٨٠ ـ ٩٠ •

عليها مدينة سفالة وعدد من الأماكن الأخرى على الساحل (٢) · ولاشك أن ظهور سفالة فى خرائط أوربا العصور الوسطى يأتى دليلا على شهرتها وعظمتها ·

وبداية ارتبط وصول البرتغاليين الى ساحل شرق أفريقية بالأحداث التى جرت فى دولة المسلمين بالأندلس · ففى خلال تلك الأحداث ولدت دولة البرتغال ، التى استطاعت عقب الهزيمة الساحقة التى لحقت بالموحدين فى موقعة العقاب الشهيرة سنة ١٢١٢ م وماتبع ذلك من انهيار نفوذها بالأندلس ، أن تقضى فى أقل من قرن على القواعد الاسلامية فى ولاية الغرب الأندلسية ، حتى أنه لم يأت منتصف القرن الثالث عشر ، الا وكانت البرتغال قد قضت نهائيا على المسلمين فى القسم الغربى من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وأخذت توطد قواها وتتأهب للمشارع الاستعمارية ، فى حين استمرت جارتها الكبيرة أسبانيا المسيحية مدة قرنين آخرين فى صراع مع أسبانيا المسلمة ، ولم تفرغ منه الا فى أواخر القرن الخامس عشر (١٤٩٢ م) (٣) · وهنا نلاحظ أن العوامل الجغرافية لعبت دورا هاما فى ظهور دولة البرتغال الصغيرة وارتفاع شأنها · فبحكم موقعها امتلكت حدودا ساحلية طويلة على المحيط الأطلسى ، بلغت حوالى ثلاثمائة ميل ، فى الوقت الذى وقفت سلسلة الجبال التى تفصلها عن أسبانيا عقبة كأداء فى سبيل تحقيق مشاريعها التوسعية فى شبة الجزيرة الأيبيرية ، ولما كانت موانيها العميقة صالحة لرسو السفن ، فضلا عن مهارة أهلها فى الملاحة ، لم يكن أمامها الا الاتجاه نحو البحر (٤) لبناء مستقبلها السياسى · ويمكن القول أن ثمة عاملين هامين دفعا البرتغال الى الاتجاه صوب الغرب ، هما العامل الدينى والعامل الاقتصادى ، ويتمثل العامل الدينى فى احتدام الصراع بين المسيحيين والمسلمين فى أسبانيا ، فى حين يرجع العامل الاقتصادى الى قلة موارد البرتغال وفقرها ، واذا كانت الزراعة فى حد ذاتها مصدر

---

(٢) Oliver & Mathew, op. cit., p. 133;
باسيل دافيدسون : افريقية تكتشف من جديد ، ص ٤٠ ·

(٣) محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، ص ٣٠٣ ·

(٤) Sykes, Hist. of Exploration, pp. 97 — 98; Davis, Exploring the World, p. 61.

الدخل الرئيسى للبرتغال ، الا أنه كان من المتعذر فلاحتها لما كانت تعانيه البرتغال من نقص مستمر فى الأيدى العاملة ، ولذلك أصدر الملك فرديناند مرسوما فى ٢٦ مايو سنة ١٣٧٥ م ، أوجب على الملاك الزراعيين أن يفلحوا أرضهم والا تعرضوا لعقوبات قاسية (٥) ٠

ويعتبر عهد الملك يوحنا الأول (١٣٨٣ – ١٤٣٣) نقطة تحول هامة فى تاريخ البرتغال ، لابسبب جهوده فى تدعيم دولته فى الداخل والخارج فحسب ، بل أيضا لأن البرتغال بدأت فى عهده تعنى بكشف سواحل أفريقية الغربية ، وهى الحركة التى عادت عليها بالثروة الطائلة والشهرة الواسعة(٦) وكان يوحنا الأول صليبيا متعصبا بطبيعته ، ولعل أبرز دليل على ذلك قوله أن بوسعه التكفير عن خطاياه « بغسل يده بدماء المسلمين » ، ولم تقل زوجته الملكة تعصبا عنه ، اذ نظرت نظرة الحقد والكراهية للمسلمين الذين أخضعوا شبه الجزيرة الأيبيرية ومياه البحار المحيطة بها لسيادتهم ، وفى تلك المرحلة التى سيطرت عليها روح التعصب الدينى ، ولدت فكرة ارسال حملة صليبية لغزو مدينة سبتة (٧) ٠

والواقع أنه منذ بداية القرن الخامس عشر ، كان الهدف الرئيسى لسياسه البرتغال التوسعية ، هو البحث عن وسيلة للوصول الى الأسواق الشرقية والسيطرة على ثرواتها من جهة ، والاطباق على العالم الاسلامى جهة أخرى ٠ وهذا يعنى أن الدافع الصليبى والمصالح الاقتصادية سارا جنبا الى جنب ، أو أن المصالح الاقتصادية فى حقيقة أمرها كانت وسيلة لغاية أبعد منها ، وهى احياء الحروب الصليبية ٠ صحيح أن تلك الحروب التى تمثل أحد مظاهر الصراع بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى فى العصور الوسطى ، قد انتهت بمعناها المحدود الضيق بنهاية القرن الثالث عشر ، ولكن ذيولها امتدت الى القرنين الرابع والخامس عشر ٠ ومما يؤيد ذلك روح التعصب التى سيطرت على أوربا خلال حرب الاسترداد التى شنتها أسبانيا المسيحية ضد المسلمين فى الأندلس ، وامتدت الى المغرب

---

(٥) Da Silva Rego, Portuguese in Sixteenth Century, p. 9.

(٦) سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ، حـ ١ ص ٥٥٨ ٠

(٧) Prestage, The Portuguese Pioneers, p. 17.

العربى . فقد نجح الأسبان فى الاستيلاء على بعض أجزاء من ساحل الجزائر وتونس ، فى حين احتل البرتغاليون أجزاء من الساحل المغربى المطل على المحيط الأطلنطى (٨) .

والجدير بالذكر أن فكرة الحروب الصليبية فى القرن الخامس عشر قد تطورت . فبدلا من مواجهة المسلمين فى معارك دامية أثبتت الحروب الصليبية فشلها الذريع فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، اذا بها فى القرن الخامس عشر تتجه الى توسيع نطاق تلك الحروب ، وذلك بتطويق المسلمين من الأمام والخلف . ووجه الاهمية هنا أن الطريق الى تحقيق هذا الهدف لم يكن معروفا ، ويتطلب جهودا متواصلة لاكتشافه . ومن ثم كانت النزعة الصليبية الاستعمارية هى القاعدة العريضة التى قامت عليها الكشوف الجغرافية فى أواخر العصور الوسطى .

ثم كان أن بدأت البرتغال فى تنفيذ مشاريعها التوسعية الصليبية ، فجهزت حملة ضخمة لغزو مدينة سبتة الاسلامية المنيعة . وقبل أن تقلع الحملة من ميناء تاجه Tagus فى ٢٥ يوليو ١٤١٥ م ، طلب الملك يوحنا الأول الى مندوبه الدينى المرافق للحملة فراى جون أكسيرا Frei John Xira أن يعلن للجند غرض تلك الحملة وأهدافها ، وهنا ألقى المندوب موعظة تطفح بالروح الصليبية ، جاء بها أن المسيحى الكاثوليكى الذى لايدافع عن عقيدته بكل ماأوتى من قوة ، لايعتبر فارسا حقيقيا من أتباع المسيح فحسب ، بل هو أشد سوءا من العدو (٩) . وعلى أيه حال ، استطاع البرتغاليون الاستيلاء على سبته ، حيث رفعوا فوق قلعتها راية القديس فنسنت راعى لشبونة ، وقد أحدث سقوط سبتة دويا هائلا فى أوربا ، لا لأنه أطاح بأهلها المسلمين وطردهم من حصنهم المنيع فحسب ، بل أيضا للتطورات العظمى التى طرأت على البرتغال آنذاك ، وجعلت منها قوة استعمارية ضخمة (١٠) . وهنا نلاحظ أن البابوية رحبت بحماس منقطع

---

(٨) جوليان : تاريخ أفريقيا ، ص ٦١ .

(٩) Prestage, op. cit., pp. 23 — 24.

(١٠) Ibid., p. 25.

النظير جهود البرتغاليين لحرب المسلمين وباركتها ، ولا أدل على ذلك من أن البابا مارتن الخامس أصدر مرسوما فى ٤ أبريل سنة ١٤١٨ ، يدعو فيه ملوك وأمراء أوربا لمساندة الملك يوحنا الأول فى حروبه ضد أعداء المسيحية (١١) • ولكن دعوة البابا لم تجد لها صدى فى أوربا عندئذ ، اذ كانت دول أوربا فى شغل شاغل بمشاكلها الخاصة •

وفى هذا الدور من أدوار الحركة الصليبية تبرز شخصية الأمير هنرى الملاح (١٣٩٤ ـ ١٤٦٠) ثالث أبناء يوحنا الأول فى صورة الفارس الصليبى ، ومن المعروف أنه كان رئيسا لمنظمة المسيح Order of Christ وهى منظمة صليبية هدفها القضاء على المسلمين (١٢) • كما كان رئيسا لطائفة اليسوعيين (الجزويت) التى ورثت منظمة الداوية فى أملاكها ، وبالتالى كان يهمه العمل على كسب أراضى جديدة للمسيحة على حساب المسلمين (١٣) • وقد بدأ هنرى يهتم بجهوده الكشفية ذات الطابع الصليبى بعد الاستيلاء على سبته ، خاصة أن بعض المسلمين بها قد زودوه بمعلومات جديدة عن سواحل أفريقية الغربية ، ويروى زورارا ـ وهو مؤرخ البلاط المعاصر ـ أن الدوافع الرئيسية لمشاريع هنرى الكشفية لم تكن علمية وتجارية فحسب ، بل كانت دينية أضا ، ويعنى هذا القضاء على المسلمين طبقا للأفكار التى وضعها دعاة الحروب الصليبية أمثال وليم آدم وريموندلل ومارينو سانوتو ، وشجعها البابوات ، على أساس تطويق المسلمين من الأمام والخلف ، وتحطيم سيطرتهم على تجارة الهند باعتبارها المنبع الرئيسى لثروتهم (١٤) •

ويمكننا أن نقسم الفترة الزمنية التى تخللتها الكشوف البرتغالية بأمل الوصول الى الهند قبل مجيء البرتغاليين الى ساحل شرق أفريقية الى المراحل الآتية :

---

(١١) Da Silva Rego, op. cit., pp. 12 — 13.

(١٢) Prestage, op. cit., p. 27.

(١٣) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ص ٥٥٩ •

(١٤) Prestage, op. cit., pp. 28 — 30; Fage, A Hist. of Africa, p. 222.

المرحلة الأولى : وتبدأ بالحملة التى وجهها البرتغاليون الى سبتة فى عام ١٤١٥ ، وتنتهى باجتياز رأس بوجادور فى عام ١٤٣٤ ، وتعتبر هذه المرحلة بمثابة اعداد للكشوف البرتغالية ، وفى خلالها تم كشف بعض الجزر المهمة فى المحيط الأطلسى (١٥) ٠

المرحلة الثانية : وتمتد من عام ١٤٣٤ الى ١٤٦٢ ، وفيها حقق البرتغاليون نجاحا مطردا على الساحل الأفريقى الغربى ، خاصة أنهم منذ عام ١٤٤٠ كانوا يمتلكون السفن الشراعية الكبيرة المسماة « كارافيل Caravels » ، التى امتازت على غيرها بتحسينات كثيرة (١٦) ٠ وهنا نلاحظ أن حركة الكشف الجغرافى قد توقفت بين عامى ١٤٣٤ و ١٤٤١ بسبب الحملة التى قادها هنرى الملاح للاستيلاء على طنجة سنة ١٤٣٧ وانتهت بالفشل ٠ ثم نشطت حركة الكشف ، حتى تم كشف الرأس الأخضر سنة ١٤٤٥ ٠ وبعد وفاة هنرى الملاح بسنتين تقدمت حركة الكشف خطوة ، فوصل البرتغاليون الى خليج غينيا ، ومنه الى المكان الذى أطلقوا عليه المينا ، وشيدوا به قلعة (١٧) ٠

المرحلة الثالثة : وهى التى بدأت الرحلات الكشفية فى المضى خلالها سنة ١٤٧٠ بعد فترة توقف قصيرة ، وفى هذه المرحلة التى دامت خمس سنوات بلغ البرتغاليون سنة ١٤٧٥ رأس كاترين الواقع على دائر عرض درجتين جنوب خط الاستواء (١٨) ، وبذلك أصبح الساحل الأفريقى الجنوبى الغربى معروفا ٠

المرحلة الرابعة : وهى التى بدأت فى سنة ١٤٨٢ ، وانتهت باكتشاف رأس الرجاء الصالح ، وفيها واصل دييجو كام وبارثلميو دياز حركة الكشف الجغرافى ٠ وكان دييجو كام قد قام برحلته الأولى فى سنة ١٤٨٢ ، متخذا

---

(١٥) Baker, op. cit., pp. 64 — 65.

(١٦) هـ٠ج٠وود : الارتياد والكشف الجغرافى ، ترجمة د٠ شاكر حصباك ، ص ٥٨ ٠

(١٧) Sykes, op. cit., p. 102.

(١٨) Baker, op. cit., p. 65.

نفس الطريق الذى سار فيه من سبقه ، حتى وصل الى مصب نهـــر الكونغو ، حيث أقـام عمـودا تذكاريا تيمنـا بنجاحـه • وباكتشـاف البرتغاليين الكونغو وجدوا أنفسهم أمام دولة أفريقية كبيرة ، وهى دولة « باكونجو » المعروفة الآن باسم سان سلفادور فى أنجولا (١٩) • وفى عام ١٤٨٥ قـام دييجو كام برحلته الثانية على طـول السواحل الصحراوية لجنوب غربى أفريقية ، فوصل الى رأس الصليب قبل موته (٢٠) • أمـا الرحلة الكشفية التى قام بها بارثليمو دياز ، فقد بدأها سنة ١٤٨٧ ، وكان من بين التعليمات التى حددها له مليكه يوحنا الثانى (١٤٨١ ـ ١٤٩٥) هو الوصول الى مملكة القس يوحنا الأسطورية Prester John • وكان أن أبحر دياز من لشبونه ، وسار جنوبا على طول الساحل الغربى لأفريقية حتى بلغ طرف أفريقية الجنوبى ، ثم اتجه بعد ذلك شرقا أملا فى العثور على مرفأ يرسوفيه ، ولكنه لم يلبث أن اكتشف أنه فقد رؤية الأرض ، فعاد وغير اتجاهه شمالا ، فبلغ الساحل الأفريقى بالقرب من خليج موسـل فى ٣ فبراير سنة ١٤٨٨ ، وهنا لاحظ دياز أن الساحل الأفريقى صار على الجانب الأيسر من سفنه ، فأدرك عندئذ أنه عبر الطرف الجنوبى للقارة الأفريقية ، وكان يود أن يتابع الرحلة ، ولكن بحارته رفضوا التوغل أبعد من ذلك خشية أن يتعرضوا للخطر ، فعاد صوب وطنه قبل أن يصل الى الطرف الجنوبى للمدن العربية الاسلامية فى ساحل شرق أفريقية • وأخيرا عاد دياز الى لشبونة فى ديسمبر سنة ١٤٨٨ ، بعد أن أطلق على الطرف الجنوبى للقارة رأس الزوابع Cabo Tormentoso تذكارا للعواصف الشديدة التى واجهته ، ولكن مليكه أطلق عليها اسم الرجاء الصالح ، لأنه بعث الرجاء فى الوصول الى الهند (٢١) •

وكما سبق أن ذكرنا أن الوصول الى مملكة القس يوحنا كان أحد أهداف رحلة بارثلميو دياز الكشفية • وعلى الرغم من الغموض الـذى

---

(١٩) رولاند أوليفر ، جون فيج : تاريخ أفريقيا ، ص ٤٨ •

(٢٠) Baker, op. cit., p. 65.

(٢١) Sykes, op. cit., p. 103; Davies, op. cit., p. 64

يكتنف هذه المملكة ، والأساطير التى نسجت حولها فى العصور الوسطى ، الا أنه يلاحظ فى الوقت نفسه أن تلك المملكة ارتبطت بالمشاريع الصليبية التى تبنتها البرتغال ضد المسلمين ، على أساس أنها المملكة المسيحية الوحيدة التى ظلت باقية خارج أوربا ، وبالتالى يمكن الاستعانة بها فى تطويق الأراضى الاسلامية من الأمام والخلف ٠

وقد أخذت الوثائق المتعلقة بالقس يوحنا – فى الظهور فى القرن الثانى عشر باعتبار أنه يعيش فى قارة آسيا ، وبعد أن فشلت الحروب الصليبية فى القرن التالى صار من الضرورى العثور على هذا الحليف لمساعدة المسيحية، ومن ثم أوفدت أوربا الرسل لهذا الغرض ، فوصل بيان دى كار بينى ومن بعده وليم الروبركوى الى بلاد المغول ، ولكن مهمتهما باءت بالفشل (٢٢)٠ على أن الجغرافيين الأوربيين فى منتصف القرن الرابع عشر بدأوا ينقلون موقع مملكة القس يوحنا من آسيا الى أفريقية ، بيد أنهم لم يتفقوا على موقع محدد لها ، فوضعوها فى خرائطهم بالقرب من نهر النيل ، أو فى جنوب شرقى أفريقية ، أو بالقرب من خليج غينيا ، وان كان موقعها فى أفريقية الشرقية والوسطى ، هو الذى شاع فى البرتغال عند بداية الرحلات الكشفية (٢٣) ٠

وكان الأمير هنرى الملاح اول من اهتم بالبحث عن القس يوحنا بهدف التحالف معه ، وبلغ من اهتمامه بأمر هذا القس أنه عندما تهيأ جونسالفيز Antao Goncalves للقيام برحلته الكشفية فى الساحل الأفريقى الغربى خاطبه قائلا : « سوف تؤدى لى بهذا العمل خدمة جليلة ، اذا اننى لاأود كشف أرض هذا الساحل فحسب ، بل الهند وأرض القديس يوحنا أيضا » وتجدر الاشارة هنا الى أنه توفرت لهنرى خرائط جاءبها أن مملكة القس يوحنا موجودة فى أفريقية ، ومن الأرجح أن السفارة الحبشية التى زارت البلاط البرتغالى فى سنة ١٤٥٢ قد أكدت له ذلك ، رقد دفعه هذا الى محاولة الاتصال بالملك القس يوحنا ، لاسيما اذا كان يعيش بالقرب من خليج

---

(٢٢) Prestage, op. cit., pp. 214 — 215

(٢٣) Prestage, op. cit., p. 215

غينيا • ولكن الملك يوحنا الثانى ازداد اقترابا من مكان مملكة القس يوحنا، اذ جعلته احدى الخرائط فى الحبشة فى شرق أفريقية ، ومن ثم فان الوصول اليها لايتم الا بالدوران حول القارة • وكان يوحنا الثانى يأمل أن يتيح له العثور على مملكة القس فرصة للتوسع البرتغالى ، والوقوف على الطريق الذى يؤدى به الى الهند (٢٤) •

ومهما يكن من أمر ، فقد عهد الملك يوحنا الثانى الى بدرودى كوفيلهان وزميله الفونسودى بايفا بمهمة البحث عن مملكة يوحنا واكتشاف المناطق المنتجة للهند ، عن طريق البحر المتوسط • فأقلع الرجلان من لشبونة الى نابولى فى ٧ مايو سنة ١٤٨٧ ، ثم الى رودس ، حيث اشتريا شحنة من العسل ليسافرا بها فى صورة تاجرين ، كما نصحهم بذلك أعضاء منظمة الاسبتار فى البرتغال ، ثم استقلا السفينة المتجهة الى الاسكندرية ، ومنها الى القاهرة ، وهناك انضما الى قافلة من المغاربة المسلمين ، وأبحرا معها فى ربيع سنة ١٤٨٨ الى عدن عن طريق سواكن • وعندما وصلا الى عدن انفصل الرجلان ، فذهب بايفا الى الحبشة ، فى حين استقل كوفيلهان سفينة وصلت الى كانانور ، ومنها توجه الى كاليكوت ، حيث رأى كميات وفيرة من التوابل ، كما عرف أن تجارتها الخارجية فى أيدى التجار المسلمين (٢٥)• ومن كاليكون توجه الى جوا ، ومنها الى هرمز أهم مركز فى الخليج العربى ، ثم فى نهاية سنة ١٤٨٩ عبر المحيط الهندى الى سفالة على الساحل الشرقى لأفريقية ، فوجدها مأهولة بالكثير من العرب الذين يتعاملون فى تجارة الذهب المجلوب من الداخل ، ثم رجع الى عدن فى أكتوبر سنة ١٤٩٠ ، ومنها الى القاهرة ، وبذلك انقضت حوالى أربع سنوات منذ أن غادر البرتغال (٢٦)• وفى القاهرة اعتزم العودة الى وطنه بعد أن فرغ من المهمة التى كلف بها ، كما توقع أن يقابل زميله بايفا ، ولكنه علم بوفاته • وعلى أية حال . قابل كوفيلهان فى القاهرة مبعوثين يهوديين أرسلهما ملك البرتغال ، وقد حملا معهما رسالة تأمره بالعودة الى وطنه اذا كان قد فرغ من مهمته غير أن كوفيلهان أرسل مع أحد اليهوديين تقريرا مطولا الى مليكه أوضح

---

(٢٤) Prestage, op. cit., pp. 215 — 216

(٢٥) Prestage, op. cit., pp. 217 — 218

(٢٦) Wilson, The Persian Gulf, p. 111

فيه الأماكن التى زارها ومشاهداته ، ثم توجه الى جدة ومنها الى مكة ، وقد تزى باللون الأبيض فى ثياب الحجاج وحلق رأسه ، ثم غادرها الى المدينة المنورة ، ومنها الى سيناء حيث زار دير سانت كاترين ، وأخيرا أبحر فى سنة ١٤٩٣ الى الحبشة واتخذها مقاما له ، ويعتبر كوفيلهان أول برتغالى تطأ قدماه أرض الهند ، ويرى مملكة القس يوحنا فى الحبشة التى صارت معروفة تماما لأوربا ، وأليه يرجع الفضل فى التمهيد للسيطرة البرتغالية فى ساحل شرق أفريقية (٢٧) ٠

وصول فاسكو دى جاما الى ساحل شرق أفريقية

توقفت حركة الكشوف البرتغالية بعد رحلة بارثلميودياز حوالى اثنتى عشرة سنة ٠ وفى تلك الأثناء اشتدت الرغبة فى الوصول الى الهند ، نتيجة لاتساع نفوذ الأتراك العثمانيين وسيطرتهم على أعالى الفرات والقسطنطينية من جهة ، ولتحكم سلطنة المماليك فى طريق البحر الأحمر ومصر والشام من جهة أخرى (٨) ، فى الوقت الذى اشتدت مخاوف البرتغال من النجاح الذى أحرزه الأسبان فى كشوفهم البحرية فى غرب المحيط الأطلسى ٠ ولذلك عهد الملك عما نويل الأول (١٤٩٥ ــ ١٥٢١) الى فاسكودى جاما بقيادة حمله بحرية لاستئناف حركة الكشوف بهدف الوصول الى الهند بحرا ، والتأكد من أن سفالة الواقعة فى ساحل شرق أفريقية ، هى فعلا « أرض الذهب الذى لاينضب » (٢٩) ٠

ويذكر المؤرخ البرتغالى جونادوس دى باروس Barros أنه بعد أن استعدت الحملة للابحار استدعى الملك عمانويل قائد الحملة وضباطها لحضور احتفال أقيم لهذا الغرض ، وأعلن بحضور بعض كبار الشخصيات البرتغالية أن هدفه الأساسى من الوصول الى الهند هو نشر الديانة المسيحيةوالسيطرة على ثروات الشرق ٠ ثم قام الملك بتسليم فاسكودى جاما راية من الحرير الأبيض عليها صليب هيئة المسيح الدينية ، وهنا أقسم فاسكو أنه سيرفع تلك الرأية عالية خفاقة أمام المسلمين والوثنيين ،

---

(٢٧) Prestage, op. cit., pp. 219 — 221

(٢٨) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ص ٥٥٩ ــ ٥٦٠ ٠

(٢٩) Oliver & Mathew, op. cit., p. 134

وسيحميها ويدافع عنها حتى الموت ، كما وعد مليكه أنه سيؤدى الواجب الملقى عليه باخلاص ، وينفذ أوامره حتى يعود سالما الى أرض الوطن ، وبعد أن تمت مراسيم الاحتفال ، تلقى فاسكو تعليمات مليكه الأخيرة ، وتسلم منه أوراق اعتماده لتقديمها الى القس يوحنا وملك كاليكوت (٣٠) ٠

أبحر فاسكودى جاما من لشبونة فى ٢٥ يوليو سنة ١٤٩٧ على رأس أربع سفن : سانت جابرييل التى كان يقودها بنفسه ، وسانت رافاييل ، وبيريو ، وأخرى تحمل مؤنا تكفى الحملة ثلاث سنوات ، أما البحارة الذين رافقوه فقد بلغ عددهم حوالى مائة وخمسين بحارا غالبيتهم من المجرمين والطبقات المعدمة والسجناء من البحارة الذين أطلق سراحهم شريطة الالتحاق بالحملة ٠ وتجدر الاشارة الى أن أولئك البحارة كانوا أول من سستطأ أقدامهم أرض ساحل أفريقية ، فاذا قتلهم اهالى الساحل لن تخسر البرتغال شيئا ، أما الضباط والمسئولون عن المدافع ، فقد كانوا من الطبقات العليا الذين لم تشتد بهم الرغبة الى الطموح والمغامرة فحسب ، بل أيضا الحماس الشديد لنشر تعاليم المسيحية بين المسلمين والوثنيين ٠ وكان برفقة فاسكو مترجم يهودى يدعى زاكوتو Zacuto ، لـه دراية بلغـات عديدة من بينها العربية ، ورغم أنه لم يسمح له الالتحاق بالحملة الا بعد أن تحول الى المسيحية ، فقد ظلت البحارة تطلق عليه « اليهودى » (٣١) ٠

ثم كان أن وصل فاسكو الى حيث انتهى بارثلميو دياز من قبل ، وهى الأرض التى يجرى نهر فش الكبير ، فاجتازها ، وواصل ابحاره ، حتى ألقى مراسية فى ٢٥ ديسمبر ١٤٩٧ فى مصب نهر أطلق عليه نهر الرحمة كما أطلق على الأراضى الواقعة حوله اسم ساحل ناتال Natal (٣٢) ٠ وكان فاسكو قبل وصوله الى هذا الساحل قد عانى متاعب مريرة ، من جراء العواصف الشديدة التى أرهقت البحارة ، وأفسدت الطعام والماء العذب.

---

(٣٠) Prestage, op. cit., pp. 251 — 252

(٣١) Davies, op. cit., pp. 72 — 73

(٣٢) Prestage, op. cit., p. 255.

والمعروف أن Natal مشتقة من الكلمة اللاتينية Natalis بمعنى الميلاد ، اذا أن اكتشاف الساحل كان فى عيد الميلاد (٢٥ ديسمبر)

الصالح للشرب ، وبلغ الأمر أن أصاب بحارته مرض الأسقربوط الوبيل ، فمات منهم حوالى مائة • وقد رحب أهالى المنطقة الأمارقة بفاسكو ، فأمدوا سفنه بالمؤن والماء العذب والفاكهة الطازجة ، ومن ثم عادت الصحة الى بحارته (٣٣) • ثم أبحر فاسكو شمالا ، وفى ١١ يناير ١٤٩٨ رسا بالقرب من مصب نهر ليمبوبو ، حيث شاهد معدن النحاس بوفرة ، فغير اسمه الى نهر النحاس • ونتيجة للترحيب الذى لقيه من قبائل البانتو فى تلك المنطقة ، اطلق عليها اسم « أرض الناس الطيبين » (٣٤) ، ثم مالبث أن عبر رأس كورنتس •

وبعد ابحار قصير ، بلغ فاسكو مدينة سفالة آخر المدن الاسلامية الواقعة فى جنوب الساحل الشرقى لأفريقية ، وفى تلك المدينة انبهر البرتغاليون بما شاهدوه من معالم حضارة راقية تفوق حضارتهم فى بعض المظاهر • فالبيوت الحجرية ، والنوافذ ذات التعريشات والمزججة بالزجاج الملون ، والمساجد المرتفعة المآذن ، والسوق الزاخر بحوانيته التى يباع فيها المشغولات النحاسية ، والسيوف المرصعة بالجواهر والفضة ، كل ذلك أثار دهشة البرتغاليين واعجابهم • على أن أعظم مااسترعى انتباههم ، مارأوه من وفرة التوابل بجميع أنواعها ؛ وعندما أظهر فاسكو لتجار سفالة عينات من التوابل التى أحضرها معه من البرتغال ، لم تأخذهم الدهشة كما توقع ، اذ أخبروه أنهم على دراية بأنواع التوابل كلها ، بما فيها السكر الذى يعتبر من التوابل آنذاك • وعندما عرف فاسكو أن التوابل ترد الى الساحل من الهند على ظهر سفن الداو المحيطية ، التى كانت تبحر بانتظام من زنجبار الى كاليكوت ، كما عرف أن المدينة الأخيرة كانت المستودع الهائل لتجارة الشرق الأقصى • وكيفما كان الأمر ، فقد وصل البرتغاليون الى الحافة الجنوبية من العالم الاسلامى فى الساحل ، ذلك العالم الذى لم يكن معروفا للأوربيين الا فى منطقة البحر الأبيض المتوسط (٣٥) •

---

(٣٣) Davies, op. cit., pp. 77 — 78.

(٣٤) Sykes, op. cit., p. 109; Baker, op. cit., p. 69

(٣٥) Davies, op. cit., pp. 78 — 79.

وبعد أن مكث فاسكو فترة قصيرة فى سفالة ، أبحر شمالا الى موزمبيق على أنه قبل أن تدخل سفنه ميناء هذه المدينة فى ٢ مارس سنة ١٤٩٨ ، شاهد بحارته مركبا يطلق عليه سمبوق (٣٦) ، يحمل على ظهره تاجرا يتحدث بالعربية يدعى دافانا Davana ، فأحضروه الى ظهر سفينة فاسكو، ولما حادثه فاسكو بوجود المترجم « اليهودى » ، اتضح أنه يتحدث العديد من اللغات الأفريقية والهندية ، وأبدى تعاونه مع البرتغاليين ، ووافق على أن يعمل دليلا لهم • وفى الميناء أحاطت مراكب تجارية صغيرة بالسفن البرتغالية ، اذ أعتاد العرب والأفارقة على استقبال السفن التى تصل الى الميناء ، ورمى الى أذهانهم أن البرتغاليين مسلمين مثلهم ، فرحبوا بهم • حدث هذا فى الوقت الذى لم يفصح فاسكو عن غرضه الصليبى ، وهو القضاء على دور العرب التجارى ، وذلك بالسيطرة على منابع تجارتهم ، وتظاهر بأنه جاء للبحث عن سلع يبتاعها • وفى أثناء وجوده فى مياه موزمبيق علم فاسكو أن سفنا عديدة تأتى من الشمال الى موزمبيق ، حاملة مختلف السلع والتوابل (٣٧) • كما علم أيضا ، وقد تهلل فرحا ، أن القس يوحنا فى الداخل (٣٨) •

على أن أهالى موزمبيق المسلمين خامرهم الشك فى جنسية الوافدين والسبب الذى أتوا من أجله ، ذلك أن بعض الأحباش المسيحيين من كانوا يعملون فى خدمة التجار العرب ادركوا كنه الرموز المسيحية التى تحملها سفينة فاسكو ، وتأكد حدسهم عندما كانوا يقومون بنقل سلع سادتهم التجار العرب الى ظهر السفينة ، فركعوا احتراما للشارات المسيحية ، ورسموا شارة الصليب على صدورهم • وعندما وصل الخبر بما حدث الى سلطان موزمبيق شاه كوايا Shah Khwaya ، رأى القيام بزيارة لفاسكو كى يتحقق من ذلك بنفسه • وكان أن اعتلى السلطان ظهر سفينة

---

(٣٦) الصنبوق أو السمبوق نرع من الزوارى الصغيرة ، استخدام فى كل من الخليج العربى والمحيط الهندى والبحر الأحمر • أنظر : درويش النخيلى : السفن الاسلامية ، ص ٧٠ — ٧١ •

(٣٧) Davies, op. cit., pp. 79 — 80

(٣٨) Prestage, op. cit., p. 257

القائد البرتغالى محاطا بحاشيته وعبيده • ولما سأل السلطان فاسكو عن هويته والغرض الحقيقى لرحلته أخفى عليه ذلك ، وادعى أنه وبحارته تجار أتوا من بلاد بعيدة للعثور على مصادر التوابل والحرير والجوهرات والمعادن الثمينة ، وأن السلع التى حملوها معهم لمقايضتها ضاعت منهم فى البحر ، كما أن لديهم كمية ضخمة من النقود الذهبية والفضة تكفى لشراء ما يلزمهم من سلع • ولا شك أن السلطان كان غافلا عن نوايا فاسكو الصليبية ، اذ صدق مزاعمه ، وتعبيرا عن حسن نواياه فى فاسكو أكد له أنه ليس ثمة مايدعوه الى أن يذهب أبعد من موزمبيق ، لأن كل ما يحتاجه من سلع متوفر لديه ، فأظهر فاسكو اغتباطه بعرض السلطان ، وقدم له الهدايا (٣٩) •

ولكن سلطان موزمبيق سرعان ما أدرك حقيقة البرتغاليين وأهدافهم ، وزاد اقتناعا بما يكنونه من عداوة للاسلام ، عندما أخبره عبيده أن قداسا يقام كل صباح على ظهر سفينة فاسكو ، الأمر الذى جعله يصمم على القضاء عليهم ، بيد أنه لما كان يعلم من دافانا أن البرتغاليين مسلحين تسليحا قويا ، وأحس بأنه عاجز عن الدخول معهم فى معركة وجها لوجه لتفوقهم فى العتاد والسلاح ، فقد آثر استخدام الحيلة ، وأخفى الأمر عن دافانا الذى كون معهم علاقات طيبة ، واكتفى بأن عهد اليه بتسليم رسالة الى فاسكو يدعوه فيها وبحارته الى وليمة أعدها ترحيبا بقدومهم الى المدينة • ويبدو أن دافانا فطن الى ما يدبره السلطان للبرتغاليين ، وزاد على ذلك بأن حذره من وقوع سفنه فى الأسر وقتل بحارته اذا قبل الدعوة ، ولذلك قرر فاسكو أن يغادر موزمبيق فى الحال ولكنه قبل أن يغادرها أرسل دافانا لاحضار مايلزمه من مؤن ، ولكن دافانا لم يستطع الحصول الا على قليل من الذرة والسمك ، لأن السلطان أصدر أوامر للتجار بالامتناع عن البيع لهم • ولم يكن أمام فاسكو بديل من الابحار دون مؤن ، بيد أنه كان عليه الحصول على الماء العذب • وعندئذ عثر دافانا على أحد الرجال دسه السلطان عليه ، أوعز اليه أن

---

(٣٩) Davies, op. cit., pp. 80 — 82

باستطاعته أن يدله على مورد ماء عذب (٤٠) · ولم يلبث هذا الرجل أن قاد البرتغاليين الى خليج ضحل نطى بأشجار كثيفة ، قاصدا بذلك أن يضيع الوقت عليهم حتى ينحسر المد ويتعذر عليهم الابحار · وأخيرا أن يضيع الوقت عليهم حتى ينحسر المد ويتعذر عليهم الابحار · وأخيرا قادهم الى مورد ماء يقف عنده رجال مسلحون بالقسى والنبال والحراب تابعين للسلطان ، وكان أن اشترك الفريقان فى قتال انتهى بقتل أتباع السلطان ، وبعد أن أخذ البرتغاليون كفايتهم من الماء العذب أسرعوا بالعودة الى سفنهم ، وجرى انتقامهم من السلطان باطلاق وابل من قذائف مدافعهم على المدينة ، فأصابها الكثير من الخراب والدمار (٤١) · ولا شك أن ما أحدثه فاسكو بالمدينة من دمار وقتل السكان ، ترك أثرا سيئا فى أهالى مدن الساحل ، الذين باتوا يدركون جسامة الأخطار المحيطة بهم ·

وعلى أية حال ، أبحر فاسكودى جاما من موزمبيق شمالا ، فبلغ ممبسة فى ٧ أبريل سنة ١٤٩٨ ، وكانت أخبار مافعله بمدينة موزمبيق قد وصلت الى بقية المدن الساحلية من أقصاها الى أدناها ، فعرفت الأهداف الصليبية الكامنة وراء الحملة التى تستهدف الانقضاض على على المسلمين وتقويض دورهم التجارى ، وبعبارة أخرى أدرك عرب ساحل المحيط الهندى الغربى أن واجبهم يحتم عليهم مواجهة الغزو البرتغالى الصليبى ، على نحو مافعل اخوتهم فى منطقة البحر المتوسط من قبل · ومما يؤيد هذا أن سلطان موزمبيق بعث الى سلطان ممبسة ، وهى المركز التجارى التالى على الساحل ، يحذره من اقتراب البرتغاليين من مدينته ، كما لفت نظره الى العواقب الوخيمة المترتبة على التهاون فى مقاومتهم (٤٢) ·

على أن سلطان ممبسة كان عاجزا بدوره عن الدخول فى معركة مع فاسكو ، ورأى أن يتخلص منه بطريقة أخرى ، فأرسل داوا محملا بالفاكهة والهدايا لدعوته الى دخول الميناء · وكان على ظهر الداو دليلان

---

(٤٠) Ibid., p. 82

(٤١) Prestage, op. cit., p. 257

(٤٢) Davies, Exploring the world, pp. 83 — 84

عهد اليهما السلطان بمهمة استقبال فاسكو ، وفى نفس الوقت للايقـــاع به ، فقابلاه وعرضا عليه أن يرسو بسفنه فى الميناء ، ولكنـه قبل أن يوافق رأى أن يتخذ الحيطة ، فأرسل اثنين من بحارته يصحبهما دافانا للبحث عن مسيحيين مقيمين بالمدينة للاستعانة بهم من منطلق أنهم أخوة له فى الدين ، وفعلا وجد دافانا عددا كبيرا من العبيد المسيحيين ، وعددا قليلا من المعتقين منهم ، ممن سمح لهم بممارسة التجارة ، وقد كشفوا جميعا عن نواياهم الصليبية تجاه البرتغاليين ، فى الوقت الذى لايملكـون من الأمر شيئا مع المسلمين • ولما كان فاسكو يعانى نقصا حادا فى المؤن ، فقد أرسل دافانا الى المدينة ليمده السلطان بما يلزمه من مـــؤن ، فوعـده السلطان أن يستجيب لطلبة حـال دخول السفن البرتغالية الميـنـــاء ، وكان أن استعان فاسكو بالدليلين لارشاد سفينته والدخـول بها فى الميناء ، غير أنه لم يلبث أن اكتشف أنهما يحاولان الايقاع به ، فأمر بوضعهما فى الأغلال ، وقد تمكن أحدهما من الهرب بالقفز من السفينة ، أما الآخر فقد صب عليه شحما مغليا ، جعله يعترف أن السلطان أمره أن يتـــود السفن البرتغالية الى مكان ضحل كى ترتطم به • ومن جراء ذلك أسرع فاسكو الى الخروج بسفينته فى منتصف الليل وقت انحسار المد ، وأخذ معه الدليل أسيرا (٤٣) •

ومن ممبسة أبحر فاسكو الى مالندى ، فوصلها بعد يوم واحـد فى ١٤ أبريل سنة ١٤٩٨ ، وهناك استقبله سلطانها بمظاهر الحفـــاوة والترحيب ، وهو أمر لم يألفه فاسكو منذ أن ظهر بأسطوله فى مياه ساحل شرق أفريقية • ومن الأرجح أن المالنديين رحبوا بفاسكو خوفا من مدافع سفنه ، أو أن السلطان كان يأمل أن يجد فى فاسكو حليفـــا يخلصه من تبعيته لكلوة التى كانت تمارس نفوذا على مـدن الســـاحل الأخرى (٤٤) •

وهنا نلاحظ أن سلطان مالندى كان فى نزاع دائم مع سلطان موزمبيق ، ويبدو أن فاسكو وقف على حقيقة هـــذا النـــزاع ، فأراد أن يستغلـــه

---

(٤٣) Ibid., pp. 84 — 85

(٤٤) Prestage, op. cit., pp. 258 — 259

لصالحه ، ولذلك أرسل لسلطان مالندى هدية هى ثلاثة أحواض للغسيل ومسابح من المرجان ، ورداء ، كانت عينة من الهدايا التى أحضرها معه فاسكو من البرتغال لتوزيعها على من يتوسم فيه الولاء والخضوع للتاج البرتغالى ، على أساس أن حكام الساحل فى مستوى متدن من الحضارة وترضيهم تلك الهدايا • وحين اكتشف فاسكو أن هديته لا تليق بسلطان مالندى اعتذر له بأنها مقدمة من شخصه ، وليست من ملك البرتغال الغنى الذى تفوق ثروته كل وصف (٤٥) • وعلى أية حال ، قبل السلطان الهدية ، ومنحه فى مقابلها كمية من التوابل الثمينة • ثم أرسل فاسكو الى السلطان مبديا رغبته فى اقامة علاقات ودية معه ، فى الوقت الذى طلب اليه أن يمده بأدلاء يستعين بهم فى الوصول الى الهند ، وجاءه الرد مرضيا ، وتعزيزا لذلك رأى السلطان أن يقوم بزيارة لفاسكو فى سفينته ، فركب زورقه الملكى ، وعندما استقبله فاسكو ، كان السلطان مرتديا رداء من الحرير الدمشقى ، مزركشا بالحرير الأخضر ، وفى وسطه سيف محلى بالجواهر ، يتدلى من حزام من الفضة ومحلى بالياقوت ، وقد جلس السلطان على كرسى وثير مصنوع من البرونز ، تحميه مظلة قرمزية اللون ، وقد اصطحبه موسيقيون ينفخون فى أبواق من سن الفيل • ثم كان أن وقع السلطان معاهدة مع فاسكو صار بمقتضاها تابعا لملك البرتغال ، وفى نظير ذلك أبدى فاسكو استعداده لمساعدته ضد خصمه سلطان موزمبيق ، وتذكارا لهذه المناسبة أقام فاسكو عمودا من الرخام على شاطىء المدينة ، وهو أول بناء دائم شيده الأوربيون فى الساحل ، لازال قائما حتى الوقت الحاضر (٤٦) • والخلاصة أن سلطان مالندى كان أول حاكم فى الساحل يرتمى فى أحضان البرتغاليين ويتعاون معهم ، بحيث أصبحت مالندى هى الحليفة الوحيدة الدائمة للبرتغال •

ونظرا لجهل فاسكودى جاما بمسالك المحيط الهندى،فقد شغل بالبحث عن ملاح خبير بأمور الملاحة وطرقها ، لمساعدته على اتمام الرحلة الى الساحل الغربى للهند ، وقد سبق أن ذكرنا أن فاسكو طلب دليلا من

---

(٤٥) Davies, op. cit.,, p. 86

(٤٦) Marsh & Kingsnorth, The Hist. of Africa, pp. 26 — 27, Davies, op. cit., pp. 87 — 90

سلطان مالندى ، ولكن السلطان تراخى فى استجابة طلبه ، وحدث أن توجه الى سفينة فاسكو ملاح مسلم من جوجرات تابع للسلطان ، وهو ابن ماجد الشهير ، والذى اعتقد فاسكو خطأ أنه مسيحى ، فاحتجزه وأخذه معه دليلا فى رحلته الى كاليكوت فى ٢٤ أبريل سنة ١٤٩٨ ، فوصل اليها فى ٢٠ مايو من نفس العام (٤٧) • ويروى المؤرخ البرتغالى كاستنهيدا كيف رافق الربان العربى فاسكودى جاما فى رحلته قائلا : « كان فاسكودى جاما يجهل الطرق البحرية التى ينبغى عليه أن يسلكها الى الهند ، فطلب من ملك مالندى أن يمده ببحار خبير بمياه المحيط الهندى ، غير أن الملك لم يكترث بطلب الأميرال ، مما أدى الى توتر العلاقات بينهما • وفى يوم ٢٢ أبريل سنة ١٤٩٨ ، زار أحد خواص الملك الأميرال فى سفينته ، فاحتفظ به رهينة عنده حتى يجبر الملك الى تلبية طلبه ، ولما علم الملك بما لجأ اليه الأميرال ، بادر بارسال ربان يدعى كاناكوا (٤٨) ••• » •

أما المؤرخ البرتغالى باروس فقد أورد تفصيلات شاملة تتناول هذا الموضوع ، استمدها من مؤرخى القرن السادس عشر ، قائلا : « فى أثناء وجود فاسكودى جاما فى مالندى ، كان برفقته جماعة من الهنود توجهوا الى سفينة أمير البحر ، ومعهم أحد مسلمى جوجرات (منطقة فى غربى الهند) يدعى « ماليمو كانا » ، وقد أخذ يحدث ملاحينا ، وكان الذى دفعه الى ذلك عاملان : عامل حب الاطلاع على أخبارهم وحوادثهم ، وعامل الرضا فى النزول عند رغبة ملك مالندى ، الذى كان يبحث عن ملاح يقبل مرافقة البرتغاليين ليدلهم على طريق الهند • وأعجب فاسكو بحديث هذا الرجل المسلم ومعلوماته الطريفة ، لاسيما عندما أطلعه على خريطة لجميع شواطىء الهند ، كما يعرفها المسلمون ، موضحا بها خطوط الطول ودوائر العرض بما فيها الدرجات بصورة دقيقة ، بخلاف خرائطنا التى يظهر فيها التشويش من اختلاط العلاقات الدالة على اتجاه الرياح والابرة المغنطة • ثم أخرج فاسكو دى جاما اصطرلابا خشبيا كبيرا واصطرلابات أخرى معدنية لقياس

---

(٤٧) Prestage, op. cit., p. 260

(٤٨) محمد ياسين الحموى : الملاح العربى ابن ماجد ، ص ٧ ــ ٨ •

ارتفاع الشمس . ولكن الرجل المسلم لم يظهر أية دهشـــة من رؤيـة هذه الآلات ، بل قال : أن ربابنة العرب فى البحر الأحمـــر كـانوا يستعملون أجهزة مثلثية ومربعية الشكل لقياس ارتفاع الشمس ، وخصوصا النجم الطبى وأضاف الرجل المسلم أنه وغيره من الملاحين يبحرون من « كمباية » ـ ميناء فى جوجرات ـ ومن كل أنحاء الهند ، ويستعينون ببعض النجوم الشمالية والجنوبية الى جانب النجوم الواقعة فى منتصف السماء ، وكذلك الشرقية والغربية منها . ولهذا فهم لايستخدمـون الاصطرلاب ، انمـا يستخدمون أجهزة أخرى عرضها لهم ، وهى تتكون من ثلاثة ألواح ولهـا نفس الهدف لدى ملاحينا . وبعد هذا الحوار الطويل مع الملاح العربى ، اقتنع فاسكودى جاما أنه عثر على كنز ثمين ، وحتى لايفقده أمر على الفور بالابحار الى الهند ، وذلك فى ٢٤ أبريل عام ١٤٩٨ ، ووصل دى جاما الى كالبكوت فى أقل من شهر ، دون أن يعترضه حادث ، وذلك فى ٢٠ مايو » (٤٩) .

ومما يذكر أن المصادر البرتغالية قد أغفلت اسم الربان العربى المسلم الذى كان سببا فى هذه الواقعة الحاسمة وماكان لها من تأثير بالغ الضرر فى مصالح الشرق الاسلامى ومصيره .وفى نفس الوقت لزم المؤرخون الصمت ازاء تلك الواقعـة ، فلم نعرفهـا ، بل لم نعـرف أسـم الربان الحقيقـى الا من مؤرخ واحد عاش فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ، هو قطب الدين النهر والى فى كتابه «البرق اليمانى فى الفتح العثمانى»(٥٠) اذ تحدث عنها عرضا عندما تناول انتقال الدولة باليمن من بنى طاهر الى الأمير حسين من الشراكة ، قائلا : « وقع فى أول القرن العاشر (الهجرى) من الحوادث الفوادح النوادر ، دخول البرتغاليين اللعين ، من طائفة الفرنج

---

(٤٩) احمد بن ماجد : ثلاث ازهار فى معرفة البحار ، ص ٨٤ ـ ٨٦ ، محمد ياسين الحموى : المرجع السابق ، ص ٨ ـ ١٠ ، نفيس احمد :جهود المسلمين فى الجغرافيا ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٥٠) ص ١٨ ـ ١٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى اخبار القطر اليمانى ، تحقيق وتقديم د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة ، ج ٢ ٦٣٠ ـ ٦٣١ ، محمد ياسين الحموى : المرجع السابق، ص ١٠ ـ ١١ ، احمد بن ماجد : المصدر السابق ، ص ٨٧ ـ ٨٨ .

الملاعين الى ديار الهند ، وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة فى البحر ويلجون فى الظلمات ، فيمرون بمضيق أحد جانبيه جبل والجانب الثانى بحر الظلمات ، فى مكان كثير الأمواج ، لاتستقر به سفائنهـم ، وتنكسر ، ولاينجو منهم أحد ، واستمروا على ذلك مدة ، وهم يهلكون فى ذلك المكان ، ولا يخلص من طائفتهم أحد الى بحر الهند ، الى أن خلص منهم غراب (٥١) الى الهند ، فلا زالوا يتوصلون الى معرفة هذا البحر ، الى أن دلهم شخص ماهر ، يقال له أحمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنج ، وعاشره فى السكر ، فعلمه الطريق فى حال سكره ، ... فكثروا فى بحر الهند ، ... وصارت الأمداد تترادف ويأخذون كل سفينة غصبا ، الى أن كثر ضررهم على المسلمين » . ومما يجدر ذكره أن احمد بن ماجد وضع مؤلفات قيمة فى الملاحة ورسم خرائط الملاحة فى بحار الشرق ، وقد نشر المستشرق الفرنسى جبرييل فران والمستشرق الروسى تيودور شوموفسكى بعض هذه المؤلفات ، وأيدوا جميعا ماذكره قطب الدين النهروالى من أن فاسكودى جاما لم يتمكن من الوصول الى الهند الا بفضل أحمد بن ماجد . على أننا نستبعد حالة السكر التى أوردها النهروالى ، اذ من المحتمل أن بعض أهالى مكة قد دسها على المؤرخ ، ليبرربها ماأقدم عليه أحمد بن ماجد من عمل دون قصد منه ، ظهرت آثاره الضارة على مصالح المسلمين فى غضون سنوات قلائل . وقد شك جبرييل فران فى صحة تلك الفرية ، لأن المسلمين لايقبلون دعوة مسيحى لايعرفونه ، حتى يتأكدوا من طعامه وشرابه اذا كانا لايحويان ماتمنعه شريعتهم وتقاليدهم الدينية ، ثم قال : « والذى يظهر لنا أن هذه الرواية مخترعة لتبرير عمل يعده مسلمو مكة خيانة عظمى » (٥٢) وبالاضافة الى هذا ، لايرقى الى المنطق أن يترك فاسكو

---

(٥١) غراب اسم سفينة استخدمها المسلمون والأوربيون فى العصور الوسطى ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لرقتها وطولها وسوادها بالأطلية المانعة للماء عنها كالزفت وغيره ، فصارت تشبه فى سوادها الغربان من الطير لسوادها وسواد مناقيرها ، أو على الأقل لأن مقدم هيكلها كان على شكل رأس غراب . أنظر : درويش النخيلى : المرجع السابق ، ص ١٠٤ – ١١٢ .

(٥٢) محمد ياسين الحموى : المرجع السابق ، ص ١١ – ١٢ .

قيادة سفنه لابن ماجد رهو فى حالة سكر ، وهو الرجل – أى ابن ماجد – المعروف من كتاباته وأراجيزه بشدة ورعه وحجه الى مكة المكرمة » (٥٣) ٠

وبعد هذا كله ، يعلق حورانى على (٥٤) مساعدة احمد بن ماجد لفاسكو دىجاما على الوصول الى الهند بقول: «فكان من سخريات التاريخ أن ملاحا عربيا كبيرا ساعد على القضاء على الملاحة العربية ، اذ لم يستطع ابعاد البرتغاليين ومن تبعهم من الشعوب الأوربية الأخرى ومنافستهم » ٠

وعلى أية حال ، وصل فاسكو الى كاليكوت أهم موانى ساحل ملبار الهندى فى ٢٠ مايو سنة ١٤٩٨ كما سبق أن أشرنا ، وأقام فيها شهورا يتعرف على أحوالها ، كما تمكن خلالها من مقابلة السامرى حاكم كاليكوت، ولكنه فشل فى عقد اتفاقية تجارية معه أو انشاء مركز تجارى للبرتغاليين فى فى بلاده ، خاصة بعد أن علم الأهالى أن الهدف من رحلته هو احتكار تجارة التوابل التى كان يشتريها الأوربيون من التجار العرب والمسلمين (٥٥) ٠

ونتيجة للفشل الذى واجهه فاسكو فى كاليكوت ، عاد الى ساحل شرق أفريقية ، فوصل أولا الى مقديشيو ، ويبدو أن أهلها استقبلوه بعداء شديد ، اذ أطلق على المدينة قذائف مدافعه ، فهدمت العديد من المنازل ، وأغرقت بعض السفن الراسية فى مياه شاطىء المدينة ٠ ثم كان أن أبحر فاسكو جنوبا الى ماليندى ، فاستقبله سلطانها بحفاوة ، وأمده بالمؤن والمياه العذبة ٠ ويبدو هنا أن خضوع سلطان ماليندى للنفوذ البرتغالى قد عرضه لسخط حكام الساحل وتهديداتهم ، مما جعله يشعر بضعف موقفه من ناحية، والخوف على ضياع سلطته من ناحية أخرى ٠ ولهذا لجأ الى فاسكو وأفضى اليه بمخاوفه ، فأكد له فاسكو أن البرتغاليين سوف يأتون الى الساحل فى أعداد غفيرة ، ووعده بتأمين سلامة مدينته ، ومما يؤيد هذا أنه سلط على مدينة ممبسة نيران مدافعه ، كما ضرب عدة مستوطنات عربية فى الساحل ، ثم أبحر عائدا الى وطنه،فوصل الى لشبونة فى سبتمبر سنة ١٤٩٩م(٥٦)

---

(٥٣) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ، ص ٨٩ ٠

(٥٤) العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ص ٢٣٧ ٠

(٥٥) زين الدين : تحفه المجاهدين ، ص ٣٧ ٠

(٥٦) جيان : وثائق جغرافية وتاريخية ، ص ٢١٠ ،
Davies, op. cit., pp. 98 — 99

وينبغى القول هنا أن فاسكودى جاما بوصوله الى الهند ، استطاع أن يقف على كثير من أحوال سكان ساحل شرق أفريقية والثروات الكامنة فى أرضه · وأهم من ذلك بكثير أن اتمام الرحلة البحرية من لشبونة الى الهند يمثل تحولا بارزا فى تاريخ التجارة الشرقية · اذ كانت المحصولات الشرقية تصل الى أوربا حتى ذلك الوقت بواسطة التجار فى مصر ، الذين كانوا يبيعونها بدورهم الى البنادقة ، ومن المعروف أن التجارة فى تلك المحصولات عادت على مصر والبندقية بأرباح طائلة ، وبوصول البرتغاليين الى منابع تجارة التوابل فى الهند والحصول عليها دون حاجة الى وسطاء ، انقلب نظام السوق التجارى رأسا على عقب · وخير مايوضح ذلك أن ملك البرتغال أرسل الى البندقية يخطرها فى لهجة لا تخلو من التهكم ، أنه لم يعد لسفنها حاجة بعد ذلك الى الذهاب الى مصر للحصول على التوابل ، اذ لن تجد فيها شيئا ، وعليها أن تقتنع فى مستقبل الأيام بأن تحصل عليها من لشبونة ، حيث وعدهم الملك بالمعاملة الطيبة التى تشعرهم بأنهم بين ذويهم (٥٧) · ولاشك أن رحلة فاسكو الى الهند قد عادت ببالغ الضرر على مصر والبندقية آنذاك ، اذ سقطت مصر فى خلال عشرين عاما فى يد الأتراك العثمانيين (١٥١٧ م) ، أما البندقية فيمكن القول أن أسواقها التجارية قد أغلقت سنة ١٥٧٣ م ، بعد أن استولى الأتراك العثمانيون على جزيرة قبرس (٥٨) ·

وصفوة القول ، أن رحلة فاسكو تعتبر حدثا خطيرا فى تاريخ العالم ، نقلته من العصور الوسطى الى العصور الحديثة · فقد مهدت للبرتغال تكوين امبراطوريتها فى الهند والشرق الاسلامى ، وأضفت على البرتغال هيبة عظيمة ، جعلت ملوكها يطلقون على أنفسهم « سادة الفتح والملاحة والتجارة فى الهند والحبشة وبلاد العرب وفارس » ، وهو لقب باركته البابوية آنذاك وأكدته (٥٩) ·

---

(٥٧) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ترجمة د· احمد عزت عبد الكريم ، توفيق اسكدر ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ·

(٥٨) Miles, Countries and Tribes of the Persian Gulf, p. 138

(٥٩) Wilson, op. cit., p. 202

الحملات البرتغالية الى الساحل فى بداية القرن السادس عشر :

رأينا فيما سبق أن البرتغاليين نجحوا فى الوصـول الى الهنـد ، وأمكنهم الحصول على التوابل دون حاجة الى دفع رسوم عبر الطـرق البحرية الخاضعة لنفوذ دولة المماليك فى مصر ، بيد أن أطماعهم لم تقف عند هذا الحد ، اذ أخذوا يفكرون فى تثبيت أقدامهـم فى سـاحل شرق أفريقية ، الأمر الذى يؤكد حقيقة أن ميدان الحروب الصليبية لم ينتصر على بلاد الشام ومصر وشمال أفريقية والأندلس ، بل امتد أيضـا الى ساحل شرق أفريقية • وكان الأمر سهلا بالنسبة للبرتغاليين ، ذلك أن سفنهم الحربية المزودة بالمدافع الضخمة فضلا عن استخدام البارود والاسلحة النارية التى أخذت تنتشر فى أوربا آنذاك ، كل ذلك جعلهم لايصادفون متاعب حقيقية فى السيطرة على مدن الساحل • ومما ساعدهم على ذلك ماكانت عليه القوى السياسية فى السـاحل من ضعف ، وانشغالهـا بمنازعاتها ، وقد ظهر ذلك واضحا لفاسكودى جاما أثناء مروره على الساحل فى طريقه الى الهند •

وهنا نلاحظ أن الروح الصليبية قد طغت على عمانويل الأول ملك البرتغال ، اذ لم تستهدف مشاريعه الاستيلاء على مدن الساحل فحسب بل اشتدت رغبته أيضا فى القضاء على المسلمين ، على أساس انهم أعداء المسيحية الألداء (٦٠) • وكان أن أخذ البرتغاليون يرسلون الحمـلات تباعا الى الساحل ، وأولى تلك الحملات التى خرجت مـن لشبونة فى ٩ مارس سنة ١٥٠٠ ، كانت بقيادة بدرو الفاريز كابرال ، وتبدو أهمية تلك الحملة فى ضخامتها ، فقد جهزها عمانويل بثلاث عشرة سفينـة ، واختار لها أعظم بحارة تلك الأيام خبرة ، وزودها بمؤن تكفى لغياب طويل (٦١) • وعلى أية حال وصل كابرال الى موزمبيق فى ٢١ يوليو من نفس العام ، وفى هذه المرة شاهد سكان المدينة أعدادا ضخمة مـن القوات البرتغالية لم يعهدوها من قبل ، الامـر الذى جعلهم يشـعرون بعجزهم عن مقـاومتها ، وفتحـوا أبواب المدينة لكابرال • ثـم أبحر كابرال

---

(٦٠) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١٣ ـ ٢١٤ •

(٦١) Prestage, op. cit., p. 277

الى كلوة فوصلها فى ٢٦ يوليو ، ولم يلبث أن سلم لسلطانها ابراهيم رسالة من الملك عمانويل يطلب فيهـــا الاعتراف بالنفوذ البرتغالى على المدينة ، ولكن السلطان بايعاز من سكان المدينة وهم من العرب ، رفض الرضوخ لمطلب الملك عمانويل ، وأخذ يتهيأ للدفاع عن المدينـــة (٦٢) • وهنا نلاحظ إن كابرال لم يتعرض للمدينة بأذى ، اذ كان متأهبا للابحار الى مالندى ، بيد أنه قبل أن يبحر استطاع أن يقنع سكان كلوة أن يسمحوا لنجار سفنـــه أنطونيو فرناندیز بالهبوط الى الشاطىء بسبب مرضه ، وهو أول برتغالى يقيم فى كلوة ، ولم يكن النجار مريضا كما ادعى كابرال ، ولكنه خلفه وراءه كى يكون عينا له على المدينة ويختبـر دفاعها (٦٣) • ثم توجه كابرال الى مالندى ، حيث أحسن سلطانهـــا استقباله ، وزود سفنه بما تحتاجه من مؤن ، كما طلب اليه أن يبقى أياما فى مدينته للاستعانة به على سلطان ممبسة ، وكانت بينهما حروب عديده ــ كما أشرنا من قبل ــ خسر فيها سلطان مالندى الكثير مـــن رجاله ، فى الوقت الذى كان لايزال يخشى أن ينتقم منه سلطان ممبسة بعد أن أظهر ولاءه للبرتغاليين ، ولكن كابرال لم يطل اقامته فى مالندى . لرغبته فى مواصلة الابحار الى الهند ، فغـــادرها فى ٧ أغسطس سنـــة ١٥٠٠ م (٦٤) •

وصل كابرال الى كاليكوت بعد ابحار استغرق ستة أشهر ، وتقدم هدايا للساموری من ملك البرتغـــال • والجدير بالذكر أن كابرال قضى ثلاثة أشهر فى كاليكوت لم يستطع خلالها أن يملأ سفنه بالتوابل فيما عدا سفينتين ، بسبب السياسة المعوقة التى سلكهـــا التجار المسلمون معه ، ولما احتج كابرال على ذلك لدى الساموری ، أصدر الأخير أوامره بمنع أية سفينة اسلامية من تحميل سلعها الا بعد أن تحصل السفن البرتغالية على حاجتها ، وأعطى الحق لكابرال فى الاستيلاء على السفن المخالفة لاوامره • ونتيجة لذلك استولى كابرال على سفينة اسلاميـــة كانت محملة بالتوابل فى ١٦ ديسمبر سنة ١٥٠٠ ، الأمـــر الذى أثار

---

(٦٢) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١١ ــ ٢١٢ •

(٦٣) تريمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقية ، مقدمة المعرب ، ص ١٣ ــ ١٤ •

(٦٤) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١٢ ــ ٢١٣

المسلمين فى كاليكوت ، فاندفع ثلاثة آلاف منهم الى المركز البرتغالى فى المدينة ، وقاموا بقتل مديره أيريس كوريا Ayres Correa وخمسين من رجاله • وقد رد كابرال على هذا العمل بالانتقام ، فاستولى على عشر سفن اسلامية موسوقة بعد أن ذبح بحارتهـــا ، فى الوقت الذى قصف المدينة بمدافعه • وبعد أن دفعت المدينة الثمن غاليا غادرها متوجها الى كوش وكانانور حيث أوسق بقية سفنه ، وبدأ رحلة العودة الى لشبونة فوصلها فى يوليو سنة ١٥٠١ ومعه ست سفن هى كل ما تبقت من السفن الثلاثة عشر التى بدأ بها رحلته (٦٥) •

وفى ١٠ فبراير سنة ١٥٠٢ أبحر فاسكودى جاما للمرة الثانية قاصدا ساحل شرق أفريقية ، حاملا تعليمات مليكه عما نويل الأول ، وهى الاجهاز على القوى الاسلامية فى الساحل من جهة ، وتحطيم السفن الاسلامية فى مياه ساحل الهند الغربى من جهة أخرى • فوصل موزمبيق فى ١٢ يوليو من نفس العام ، وترك بها احدى سفنه لمراقبة الساحل ، ثم أبحر الى كلوة ولم يلبث أن طلب من صاحبها السلطان ابراهيم (١٤٩٩ ــ ١٥٠٦) أن يعترف بخضوع بلاده لملك البرتغال ، ولما هدده فاسكو بحرق المدينة وتدميرها اذا أصر على عناده ، تراجع السلطان عن موقفه ، وقبل أن يدفع جزية سنوية ضخمة رمزا لخضوعه ، وبذلك فقدت كلوة استقلالها • وهنا نلاحظ أن فرض الجزية على حكام الساحل كان نموذجا لمعاملات البرتغال فى الساحل فاذا امتنع أى حاكم عن دفعها يجرى تدمير مدينته ، أما اذا قبل دفعها ، فكان يترك عادة فى سلام (٦٧) •

ثم كان أن أقلع الأسطول البرتغالى من مياه كلوة الى الساحل الغربى للهند ، واتفق أنه عندما دنا فاسكو من مياه هذا الساحل التقى بسفينة كبيرة تابعة لسلطان مصـر المملوكى محملة بالتوابل ، وكـان ركابهـا فى طريقهم الى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج ، فقصفها فاسكو بمدافعه ، وبعد

---

(٦٥) Prestage, op. cit., p. 292

(٦٦) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١٣ ــ ٢١٤ •

(٦٧) Marsh & Kingsnorth, op. cit., p. 28

أن نهب حمولتها ، وذبح كل ركابها فيما عدا عشرين طفلا ، أمر باغراقها(٦٨)

وفى العام التالى (١٥٠٣) أقلعت حملة من لشبونة بقيادة أنطونيو دى سالدانها لمطاردة السفن العربية فى مياه المحيط الهندى ، والعمل على أغراقها ، ولكنه ضل الطريق ، فرسا فى مياه جزيرة سانت توماس الواقعة على خط الاستواء ، وعند رحيله عنها ، انفصلت عن أسطوله سفينة بقيادة لورنزو رافاسكو ، فوصل موزمبيق ، بيد أنه لم يمكث بها الا يوما واحدا على أمل أن يلحق به سالدانها ، ثم توجه الى زنجبار ، حيث قضى بها شهرين ارتكب خلالها العديد من الفظائع ، من ذلك أنه أسر عشرين سفينة عربية موسوقة بالسلع كانت رأسية فى الميناء ، ولم يخل سبيلها الا بعد أن دفع أصحابها جزية ضخمة ، كما تمادى فى اساءة معاملة الأهالى وابتزاز أموالهم ، فلما ضاق سلطان زنجبار ذرعا بأعمال رافاسكو الهمجية ، جهز بضع سفن لمقاومته ، وفى المعركة التى دارت بين الفريقين ، دفعت زنجبار الثمن غاليا ، اذ حصد رافاسكو أهالى المدينة المدافعين بمدافعه ، وكان من بين القتلى ابن حاكم زنجبار ، ومهما يكن من أمر ، فقد انتهى الأمر بعقد اتفاقية صلح ، تعهدت زنجبار بمقتضاها على دفع جزية سنوية من الذهب لملك البرتغال (٦٩) ٠

ثم أبحر رافاسكو الى ممبسة ، وهناك واصل أعماله الوحشية ، فاستولى على سفينتين موسوقتين بالسلع ، وأسر اثنى عشر مسلما من وجهاء مدينة بروة ، وهم على قدر عظيم من الثراء ، ولم يطلق سراحهم الا بعد أن دفعوا له فدية ضخمة ، كما فرض على المدينة كمية من الذهب ، وفى هذا الوقت وصل سالدانها على رأس أسطوله ، فارتاع الأهالى خشية أن يكرر مافعله رافاسكو ، ولكنه لم يمكث فى ممبسة الا قليلا اذ غادرها مسرعا الى الهند ، لشدة الحاجة اليه هناك (٧٠) ٠

---

(٦٨) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١٤ ــ ٢١٥ ،
Prestage, op. cit., p. 294

(٦٩) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١٥ ــ ٢١٦ ٠

(٧٠) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١٦ ٠

وفى تلك الاثنـاء أدركت البندقية الخطر الذى يهدد مصالحهـا التجاريـة بسبب تحويل طريق التجارة العالمية من البحر الاحمر الى رأس الرجاء الصالح، فأرسلت سلسلة من وكلائها السريين الى لشبونة ، الذين نقلوا اليها أن القوافل الهندية تصل تباعا الى البرتغال ، ومنها الى مدينـة انتويرب Antwerp بالاضافة الى أن الشركات الألمانية والايطاليـة قامت بتأسيس مراكـز تجـارية لهـا فى لشبونـة لاسـتبدال نحاسهـا بمحاصيل الهند • وعندئذ أرسلت البندقية سفارة الى قانصوه الغورى (١٥٠١ – ١٥١٦) سلطان مصر المملوكى لحثه على القيام بعمل يكفل حماية مصالحه ومصالح البندقية • والواقع أن سلطنـة المماليك آنذاك كانت منهكة القوى ، فقد ترتب على تحويل طريق التجارة العالمية أن فقدت المورد الأساسى الذى اعتمدت عليه واستمدت منه قوتها • ويبدو أن السلطان الغورى كان عاجزا عن القيام بعمل حربى من شأنه منـع البرتغاليين من التعرض بسوء للسفن الاسلامية فى المحيط الهندى ، ومن ثم لجأ الى الأساليب السياسية ، فبعث بسفارة الى البابا برآسة الراهب مورودى سان برناردينو مقدم دير سانت كاترين فى سيناء ، فوصلت الى روما فى سنة ١٥٠٤ ، وقام الراهب بتسليم رسالة الى البابا ، جـاء فيها أن السلطان قد ضاق ذرعا بالاعمال العدائية التى يرتكبها البرتغاليون (٧١) ، ومالم يكفوا عن تلك الأعمال ، فانه سيقوم من جانبه مضطرا بقتل جميع الفرنج المقيمين بدولته تجارا ورهبانا ، كما سيقوم بغلـق كنيسة القيامة ، ولاشك أن ذلك التهديد قد أفـزع البابا ، وأنـه رأى وجوب التدخل لحماية حجاج الفرنج ، وللعمل على أن تظل كنيسة القيامة مفتوحة فى وجوههم ، ومن ثم زود البابا السفارة بكتـاب الى ملـك البرتغال (٧٢) ، وكانت تفاصيل هذه السفارة قد وصلت أخبارها الى

---

(٧١) Prestage, op. cit., p. 295

(٧٢) Miles, op. cit., p. 140;

Hrbek, Egypt, Nubia and Eastern Deserts, in Cambridge Hist. of Africa, ed. by Fage & Oliver, Vol. 3, pp. 62 — 63;

أحمد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى، ص ١٣٤ •

ملك البرتغال ، فلم يتأثر بذلك التهديد الأجوف ، مما جعله يحتفظ بقوة ضخمة دائمة فى الشرق تحت قيادة ضابط برتبة عالية ، لمواصلة الحرب لا مع المسلمين فى الهند فحسب ، بل أيضا مع المماليك • وعلى أية حال ، وصلت سفارة مورو الى لشبونة فى يونيو سنـــة ١٥٠٥ ، حيث قابلت الملك عمانويل الاول ، ولكنها لم تنجح فى مسعاها ، بل لم يلبث عمانويل أن أرسل حملة من لشبونة بقيادة فرانسسكو دالميدا ، وهو أول من عين حاكما عاما للمستعمرات البرتغالية فى الهند ونائبا للملك البرتغالى (٧٣)•

وتوضح حملة دالميدا السياسية الاستعمارية الجديدة التى بـــدأت البرتغال تعمل على تنفيذها فى مناطق ساحل شرق أفريقية فى تلك المرحلة ، ذلك أن عمانويل الاول لم يقنع بفرض جزية على حكام الساحل المسلمين بل أصدر أوامره باخضاع كل مدن الساحل وتزويدها بالقلاع والحصون ، وترك حاميات بها لفرض السيطرة البرتغالية بالقوة من ناحية ، وحراسة الطريق المؤدى الى الهند من ناحية أخرى • وتنفيذا لتعليمات مليكـــه قاد دالميدا أسطولا ضخما من لشبونة مؤلفا من اثنتين وعشريـــن – أو ثلاث وعشرين – سفينة فى ٢٥ مارس سنة ١٥٠٥ • ولم يكد دالميدا يصل الى كلوة فى يوليو من نفس العام ، حتى أسرع سلطانها ابراهيم بالفرار الى الداخل خشية أن يقع فى أيدى دالميدا • وكان أن دخل دالميدا المدينة على رأس قوة مؤلفة من خمسمائة جندى ، وانصرف الى تدعيم سيطرته ببناء حصن أطلق عليه حصن سنتياجو ، وترك به حاكما وحامية مؤلفة من مائة وخمسين جندى لحراسته (٧٤) • وثمة شاهد عيان ألمانى أو هولندى كان مرافقا لدالميدا فى حملته ، وقد ترك لنا وصفا عما أحدثه دالميدا بمدينة كلوة ، اذ بعد أن قصف المدينة بمدافعه وأشعل فيها النار وسط دهشة السكان وهلعهم ، « نزل نائب الملك الى الساحل ومعه بعض الآباء الفرنسسكان حاملين صليبين فى موكب وهم ينشدون To Deum وتوجهوا جميعا الى قصر السلطان ، حيث ثبتوا صليبا ، وصلى القائد

---

(٧٣) Sykes, Hist. of Exploration, pp. 111 — 112

(٧٤) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ – ٢٢٤ ،
Prestage, op. cit., p. 296

البرتغالى ، ثم مالبث أن أمر جنوده بنهب المدينة ، فأتوا على مافيها من سلع ومؤن (٧٥) » ٠

ثم أبحر داليدا متجها الى ممبسة فى ٨ أغسطس من نفس العام ، وعند وصوله اليها أرسل الى حاكمها يدعوه الى الاعتراف بسيادة البرتغال فلما رفض شن داليدا هجوما قاسيا على المدينة ، انتهى الى تدميرهـــا واضرام النار فيها ، وبذلك خضعت المدينة (٧٦) ٠ ويذكر نفس شاهد العيان أن داليدا « أعطى أوامره لجنده بنهب المدينة ، ونقل مانتفع عليه أيديهم الى السفن ، ووعد كل جندى بالحصول على جزء من عشرين مما ينهبه بما فى ذلك الذهب والفضة والجواهر ، ونتيجة لذلـــك استولى البرتغاليون على كميـــات ضخمة من القماش المصنوع من القطن والحرير الفاخر والاقمشة الموشاة بخيوط الذهب ، فضلا عن السجاد الثمـــين ، الذى كان من بينه واحدة لا يدانيها فى الجمال أية سجادة وتذلك اختص بها ملك البرتغال ومعها أشياء أخرى ثمينة (٧٧) » ٠ ومما يذكر أن سلطان ممبسة بعث برسالة الى سلطان مالندى فى أعقاب الخراب المدمر الذى ألحقه داليدا بمدينته يقول فيها أن السواحيليين والعرب فى ممبسة عندما عادوا الى مدينتهم لم يجدوا فيها أثرا للحيـــاة ، فقـــد قبض البرتغاليون على كل من لم يتمكن من الهرب من النســـاء والرجـــال والأطفال ، وأحرقوا بعضهم (٧٨) ٠ وعلى أية حال ، أبحر داليدا من ممبسة الى الهند ، بعد أن قام بأعمـــال النهب والسلب والاعتـــداء على الآمنين من أهالى مدن الساحل ٠

وعلى حين كان البرتغاليون ينزلون الضربات تلو الأخرى بمدن ساحل شرق أفريقية ، بدأوا يوجهون جهودهم الى اغلاق منافذ المحيط الهندى التى تصله بقلب العالم العربى ، مثل مضيق هرمز عند مدخل الخليج العربى ، ومضيق عدن عند مدخل البحر الأحمر ٠ ولهذا الغرض أرسل عمانويل الأول حملة بقيـــادة تريستان

---

(٧٥) Davidson, Africa in History, p. 183

(٧٦) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ ٠

(٧٧) Davidson, cp. cit., p. 183

(٧٨) باسيل دافيدسون : أفريقية تكتشف من جديد ، ص ٨١ ٠

داكنها Tristao Da Cunha فى٦مارس سنة١٥٠٦ ، وأمره بالتوجه الى جزيرة سوقطرة التى تتوسط المسافة ما بين الخليج العربى والبحر الأحمر ، واقامة قلعة فيها لمنع السفن الاسلامية من دخول ومغادرة البحر الأحمر من ناحية ، واستخدامها محطة بحرية للاسطول البرتغالى من ناحية أخرى (٧٩) • وعند وصول داكنها الى مالندى رحب به حاكمها ، وأخذ يكرر على مسامعه المعاملة السيئة التى يلقاها من جيرانه بسبب ولائه للبرتغاليين ، ولكن داكنها لم يلبث ان غادر ما لندى شمالا الى العوجة ، فلما بلغها طلب الى صاحبها مقابلته ، ولكنه اعتذر بوصفه تابعا لسلطان مصر المملوكى ، وأن هذه الصفة لا تسمح له بمفاوضة خصومه ، فما كان من داكنها الا أن دمر المدينة وبعد أن نهبها اشعل النار فيها (٨٠) •والجدير بالذكر أن المصادر البرتغالية هى التى انفردت بسرد تلك الرواية ، فى حين أن المصادر العربية لا تشير الى وجود علاقات سياسية مباشرة مع تلك البلاد البعيدة ، ومع ذلك فان تلك الرواية تعتبر خير شاهد على الشهرة الواسعة التى تمتعت بها مصر فى منطقة المحيط الهندى (٨١) • ثم كان أن أبحر داكنها الى مدينة لامو ، فخشى أهلها أن يلحق بها من الدمار ما لحق بغيرهم من أهالى الساحل ، وتعهد بدفع جزية سنوية من الذهب • ثم قصد داكنها بروة ، وكانت من أعظم مدن الساحل ازدهارا وتجارة رائعة ، فلما ظهر بأسطوله أمامها ،وقف صاحبها موقفا عدائيا منه ، اذ خرج الى الشاطىء ومعه ستة آلاف محارب ، وجرى اشتباك عنيف انتهى بانتصار البرتغاليين الذين استخدموا مع الأهالى أقسى أساليب البطش والتعذيب ، وفضلا عن ذلك قاموا بنهبها واحراقها ، مما جعل السكان ينسحبون الى التلال المجاورة (٨٢) • ثم أبحر داكنها الى مقديشيو ، وكانت أخبار الفظائع التى ارتكبها فى بروة قد وصلت الى أهالى مقديشيو ، فاستعدوا للمقاومة ، واستطاعوا الوقوف فى وجه البرتغاليين ، وقد ساعدهم على ذلك مناعة المدينة وقوة

---

(٧٩) Wilson, op. cit., p. 112; Miles, op. cit., p. 141

(٨٠) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ ــ ٢٤٧ ،
Oliver & Mathew, op. cit., p. 134

(٨١) Hrbek, op. cit., pp. 85 — 86

(٨٢) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٤٧ ــ ٢٤٩ ، ص ٣٢٢ ،
Davidson, op. cit., p. 183

تحصينها ، ومما يذكر أن مقديشيو ظلت محتفظة باستقلالها طوال سيطرة البرتغاليين على مناطق الساحل (٨٣) • ثم كان آن أبحر داكنها الى سوقطرة ، فاستولى عليها،ومنها توجه الى الهند •

وكان ألفونسود البوكيرك قد رافق حملة داكنها على رأس أسطول منفصل ، وكانت التعليمات التى زودها به مليكه عمانويل الأول تقضى بالاستمرار فى سياسة التوسع التى وضعتها البرتغال فى الشرق على حساب المسلمين ، كما أعطاه تفويضا بتعيينه نائبا للملك وحاكما عاما للهند خلفا لالميدا ، وقد أقلع من لشبونة فى ٦ مارس سنة ١٥٠٦ ، وربما كانت أهمية هذه الحملة هى أنها استولت على هرمز ، وبذلك سيطرت البرتغال على الخليج العربى (٨٤) • وفى هذا الصدد يقول المؤرخ يحيى بن الحسين (٨٥) : « وفى هذه السنة (٩١٣ هـ) استولى الافرنج (أى البرتغاليين) على بندر هو رمز ، وأمنوا من فيه من المسلمين والتجار المسلمين ، ووصل الخبر بذلك الى اليمن » •

وقبل أن يتولى البوكيرك منصب حاكم الهند العام فى نهاية سنة ١٥٠٩ خلفا لالميدا ، رأى السلطان قانصوه الغورى أن يلجأ الى سياسة القوة لمنع البرتغاليين من التعرض بسوء لسفن المسلمين ، لاسيما بعد أن فشلت سفارة مورو فى مهمتها • ولهذا السبب شيد أسطولا ضخما فى أوائل سنة ١٥٠٧ ، وفى القتال الذى نشب بين المماليك والبرتغاليين فى مارس سنة ١٥٠٨ بالقرب من شول على الساحل الغربى للهند انتصر المماليك ، ولكن لم يلبث أن انتقم البرتغاليون لأنفسهم،اذ أحرزوا نصرا حاسما على الاسطول المملوكى فى موقعة ديو البحرية فى فبراير سنة ١٥٠٩ (٨٦) • وبذلك سيطر البرتغاليون على مياه المحيط الهندى ، وبالتالى فقد ساحل شرق أفريقية مكانته التجارية ، وبات يعانى تدهورا سريعا متواصلا •

---

(٨٣) Oliver & Mathew, op. cit., p. 134

(٨٤) Prestage, op. cit., p. 298;
Miles, op. cit., pp. 140 — 141

(٨٥) غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، حـ٢ ص ٦٣٦ •

(٨٦) Hrbek, op. cit., p. 63; Prestage, op. cit., p: 297;
زين الدين : تحفة المجاهدين ، ص ٤٠ ــ ٤١ •

رأخيرا نصل الى القول أن البرتغاليين نجحوا فى السيطرة على الساحل فى أوائل القرن السادس عشر ، ولكن هذا النجاح كلفهم الكثير ، ذلك أن أعدادهم قليلة كانت عاجزة عن ضبط أمور ساحل طويل ممتد كهذا الساحل ،فى الوقت الذى كانوا لا يستطيعون الاعتماد على عرب الساحل ، لما يضمرونه لهم من أهمية • ونتيجة لذلك ، فان المستوطنات العربية القديمة التى فقدت مصالحها التجارية الواسعة قد أصيبت بالشلل،وصارت أكثر فقرا رضعفا،حدث ذلك فى موزمبيق وكلوة وسفالة ، التى كانت تتمركز فيها الحاميات والقلاع البرتغالية• أما مدن الشمال ، فقد اختلفت أمورها الى حد ما ، اذ أبقى البرتغاليون على الحكام المحليين ، واكتفوا بفرض جزية سنوية عليهم (٨٨) •

ولسنا هنا فى مجال الحديث عن أحداث البرتغاليين خلال وجودهم فى الساحل ، اذ لا يدخل ذلك ضمن موضوع هذا الكتاب ، ولذلك نكتفى بالقول أن البرتغاليين رغم أنهم استأثروا وحدهم بتجارة ساحل شرق أفريقية ، تدفعهم أحلامهم الاستعمارية الى نهب أكبر قدر ممكن من ثروات هذا الساحل ، الا أنهم فشلوا فى تحقيق هذا الغرض ، حتى لقد بدت شكاوى مبعوثيهم الرسميين الى مناطق الساحل تصل الى ملك البرتغال فى سنة ١٥١٢ تنعى ضآلة ماستطاعوا نهبه من هذه الثروات،لقد واجهتهم فى بادىء الامر مقاومة سلبية • ومما يدل على ذلك أن التجار فى سفالة بدأوا ينسجون ملابسهم القطنية بأنفسهم ، حيث لم يعد باستطاعتهم جلبها من الهند الا عن طريق البرتغاليين ، فى الوقت الذى انعدم ورود الذهب من الداخل ، بسبب الحروب المتصلة بين القبائل هناك ، وكا نالامر بالنسبة للبرتغاليين يتطلب توسعا الى الداخل ، وهو أمر لم يكن باستطاعتهم تحقيقه آنذاك نظرا لما يكتنفه من صعوبات (٨٩) •

---

(٨٧) Oliver & Mathew, op. cit., p. 135

(٨٨) Marsh & Kingsnorth, op. cit., pp. 29 — 30

(٨٩) باسيل دافيدسون : افريقية تكتشف من جديد ، ص ١٢٤ ــ ١٢٥ •